بحث عـام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 8 ديسمبر 2015

إدوارد والرب:
أنطولوجيا التدين عند ميلان كونديرا

طارق عثمان
باحث مصري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com مؤسسة دراسات وأبحاث

All rights reserved © 2015
جميع الحقوق محفوظة © 2015

الملخّص:

مهمة الرواية، وفقا لكونديرا، هي التأمل الاستيطيقي في وجود الإنسان في هذا العالم، والكشف عن مختلف إمكانات هذا الوجود، يتم ذلك من خلال ابتكار شخصيات خيالية، تكشف كل منها عن جانب لم يتم سبره، من جوانب كينونة الإنسان، حيث تصير كل رواية بمثابة مساهمة في حل لغز الأنا البشرية. إن مهمة الرواية إذن، هي مهمة أنطولوجية بامتياز. وفقا لذلك، عندما تفكر الرواية في الدين، ستفكر في بعده الأنطولوجي تحديدًا، ولن يكون الهدف من هذا التفكير، دراسة الدين نفسه، وإنما دراسة الكينونة البشرية، من خلال الدين.

تروم هذه المقالة عرض تأملات ميلان كونديرا الأنطولوجية، حول التدين، من خلال قصة "إدوارد والرب". وتجادل عن كون كونديرا لا يقول بجوهرية التدين، وأن موقف كونديرا من الإله مرتبط بموقفه من هذا العالم، بوصفه عالما لا جوهريا وتافها، بالضرورة.

"ومن الناس من يعبد الله على حرف". (الحج: 11)

مقدمة أو كيف يمكن للرواية أن تفكر في الدين؟

مبكرًا، استطاع الدين، أن يفرض نفسه، دونما عناءٍ، على أجندة العلوم الإنسانية، فخصص كل فرعٍ منها، حيزًا ضخمًا من برنامجه، لدراسة الدين. فصار لدينا ما يُعرف بأنثروبولوجيا الدين، وسوسيولوجيا الدين، وسيكولوجيا الدين، وتاريخ الأديان، وأحيانا تُجمع كل هذه العناوين، تحت عنوان عام هو: علم الأديان (للمزيد عن مفهوم علم الأديان، وتاريخه، ونطاق اشتغاله، راجع: إلياد، 1994؛ 2007). الفلسفة بدورها، لم تغفل عن الدين، وما كان ينبغي لها أن تفعل، فأنتجت، بعيدا عن الميول الوضعية، للعلوم الإنسانية، ميتافيزيقيا جريئة، ستسمى بفلسفة الدين. الجميع إذن يفكر في الدين، ومن حق الرواية، هي الأخرى، أن تفعل ذلك. ولكن، كيف يمكن لها أن تفكر في الدين؟ فإذا كانت للعلوم الإنسانية مقارباتها ومناهجها الخاصة، التي توسلت بها في دراسة الدين، وكان للفلسفة، هي الأخرى، طريقتها الفريدة في التدبر، والتساؤل الحر، فما الذي تملكه الرواية، كفنٍ، ومنتَجٍ استيطيقيا، في المقابل، لتقارب به الدين؟

للإجابة عن هذا السؤال، علينا، أولًا، أن نحدد ماهية الرواية وروحها، من وجهة نظر كونديرا طبعا؛ ينطلق كونديرا، في تحديده لماهية الرواية، من عند، مارتن هايدجر (2012) الذي اشتكى كثيرا، من كون كل من الفلسفة الحديثة، والعلوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية، وفي ضرب من التواطؤ المريب، قد أقصوا الكينونة، من أفق تفكيرهم، حيث، غدا تاريخ الفكر الحديث برمته، بمثابة، تاريخ لـ"نسيان الكينونة". في مقابل ذلك، يرى كونديرا، أن فن الرواية (الذي هو فن حديث هو الآخر)، هو الذي أخذ على عاتقه مهمة تذكر تلك الكينونة المنسية:

"فإذا كان صحيحا، أن الفلسفة والعلوم، قد نسيا كينونة الإنسان، فإنه يظهر بوضوح، أن فنًا أوروبيا كبيرًا، قد نشأ مع سرفانتس، وما هذا الفن، إلا سبر هذه الكينونة المنسية" (كونديرا، 2007: 18).

ومن ثمة، يمكن تعريف الرواية بأنها: "تأمل في الكينونة، يتم رؤيته عبر شخصيات خيالية" (كونديرا، 2007: 85).

مهمة الرواية الأساسية، إذن، والتي لا يمكن لغيرها أن تقوم بها، هي التفكير في وجود الإنسان في العالم، في أنماط هذا الوجود، وأحواله، وإمكاناته، المتحققة، والتي يمكن لها أن تتحقق. يتم إنجاز هذا التفكير، عبر اختراع شخصيات خيالية، كل منها بمثابة "أنا تجريبية" (كونديرا، 2007: 42)، كل شخصية/أنا من تلك

الشخصيات، تمتلك رمزًا أنطولوجيا معينا، يتم التعبير عن هذا الرمز، من خلال، ثيمات، أو كلمات مفتاحية معينة (مثل: الجسد، الشِعر، الشباب، الشيخوخة، الحنين، الهوية، الخفة، الثقل، ...إلخ)، وتقوم الرواية، بفحص هذه الكلمات، بغرض سبر كينونة هذه الشخصية، وفك لغزها (رمزها).

ليس من همّ الرواية إذن، أن تدرس الواقع الإنساني، في مختلف أبعاده السياسية والاقتصادية والتاريخية والفكرية، فبوسع علوم كثيرة، أن تقوم بهذا الدور (السياسة، الاقتصاد، التاريخ، الفلسفة)، ولكن مهمتها، هي فحص كينونة الإنسان، في هذا الواقع. قد يحضر التاريخ أو السياسي أو الفكر، في الرواية، لكنه لا يكون حضورًا جوهريًا، حيث، يشكل محور الرواية، وإنما هو يحضر بقدر ما يعين على فهم كينونة الأنا، إنه حضور موظف وبراجماتي تماما، الغرض منه، إلقاء الضوء مزيدًا، على هذه الأنا البشرية. وفق هذه الرؤية، لن يكون هناك، ما يمكن تسميته، بالرواية التاريخية، أو السياسية، أو الفلسفية، أو حتى السيكولوجية، وإنما سيكون هناك وفقط، رواية أنطولوجية. فالرواية تكون أنطولوجية، أو لا تكون؛ وفحص الأنطولوجيا البشرية، هو روح فن الرواية.

وفق هذه الرؤية لماهية الرواية، يمكننا أن نجيب عن سؤالنا: كيف يمكن للرواية أن تفكر في الدين؟ لن تفكر الرواية، في الدين، بوصفه منظومة عقائدية، وطقوسية، ولن تفكر فيه كظاهرة اجتماعية، أو نفسية. ولن تفتش عن تاريخه، ولا أنواعه ولا نشوئه ولا تطوره، عبر الزمن. ولن تتحول الرواية، إلى كتاب آخر في اللاهوت، ومقارنة الأديان. وإنما ستتناول الدين في بعده الأنطولوجي حصرًا، ستتعرض له بقدر ما يكشف عن الكينونة البشرية، لن يكون الدين نفسه إذن، هو محور الرواية، وإنما سيكون مجرد كاشف، ينير لنا جزءًا آخرًا، من الأنا البشرية. علينا إذن، ألا ننتظر من الرواية، أن تقدم لنا معرفة عن الدين، وإنما علينا أن ننتظر منها معرفة عن الكائن البشري، من خلال الدين. إن الرواية لا تتحدث عن الإله، ولكن عن الإنسان في علاقته مع الإله.

لنحدد مرام هذه المقالة، أولًا، بالسلب: إنها لا تروم، الانشغال بموقف كونديرا، من الدين، حيث يكون بوسعنا في النهاية، أن نعرف هل كونديرا شخص مؤمن بالله، أم ملحد، أم لا أدري، في أحسن أحواله؟ فواقع الأمر أن مثل هذه الأسئلة غير ذات صلة، ولا تشغلنا بالمرة؛ فوفقا لكونديرا نفسه، لا ينبغي للروائي أن يتخذ من الرواية، مجرد منصة لعرض آراء نهائية، فيما يخص الدين أو الفلسفة أو السياسية، وإنما ينبغي أن تبقى ساحة للتأمل الحر المتشكك واللعبي على الدوام:

"ثمة فارق أساسي بين طريقة تفكير الفيلسوف، وطريقة تفكير الروائي؛ غالبا ما نتحدث عن فلسفة روائي ما، كتشيكوف أو كافكا أو موزيل،... إلخ، ولكن حاول أن تستخلص فلسفة متماسكة من كتاباتهم! حتى عندما يعبرون عن أفكارهم بشكل مباشر، كما هو الحال في مذكراتهم مثلا، فإن هذه النصوص هي بالأحرى، تمارين في التأمل، وألاعيب، ومفارقات، وارتجال، أكثر منها تأكيد فكرة ما" (كونديرا،2007: 81).

وعلينا نحن، إذن، بالتبع، ألا نختزل مُبدَعا ما، في شخصية صاحبه؛ فعوضا عن التركيز على الجمالي فيه، ننشغل بمحاولة استخلاص أفكار صاحبه، وتصوراته عن العالم. بالضبط، كما لا ينبغي علينا أن نفسر هذا المُبدع، فقط، من خلال سيرة صاحبه، وتفاصيل حياته الشخصية، علينا أن نأخذ درس نيتشه بقدرٍ مناسبٍ من الجد: "أنا شيء وكتاباتي شيء آخر" (نيتشه، 2003: 65). إذن، لا يهمنا موقف كونديرا الشخصي هنا، بقدر ما تهمنا التأملات المعروضة عبر هذه القصة، وفق منطق الرواية، الخاص به: الأنطولوجي، والفكاهي، والخفيف لدرجة لا تُحتمل.

أما إيجابًا: فإن هذه المقالة تحاول، أن تعرض تأملات ميلان كونديرا الأنطولوجية، حول التدين، من خلال قصة "إدوارد والرب"، المنشورة ضمن كتابه: "غراميات مرحة"؛ وهو عبارة عن سبع قصص قصيرة (لا أحد سوف يضحك، تفاحة الشهوة الخالدة الذهبية، لعبة الأوتوستوب، المسامرة، ليُخلِ الموتى القدامى المكان للموتى الجدد، دكتور هافيل بعد عشرين سنة، وإدوارد والرب)، مكتوبة بالتشيكية، ما بين 1959- 1968، ونُشر الكتاب لأول مرة في 1969.

هذه القصص إذن، تمثل، أعمال كونديرا المبكرة (لا أحد سوف يضحك، هي أول أعمال كونديرا المنشورة، كتبها وهو ابن ثلاثين عاما)، وهي مجموعة في كتاب واحد، بوصفها رواية، وليس بوصفها مجموعة قصصية؛ فنحن نعلم، أن كونديرا، لا يجعل من وحدة الحدث، شرطا من شروط العمل الروائي، ولكنه في المقابل يجعل من وحدة التيمة؛ أي السؤال الأنطولوجي، الذي تفحصه الرواية، والمعبر عنه في كلمات رئيسة، شرطا كافيا لتحقق البنية الروائية. والحال، أن هذه القصص السبع، لا يوجد أي حدث مشترك يجمعها تقريبا (فقط، شخصية الطبيب هافيل موجودة في قصتين)، ولكن في المقابل، تجمعها، وحدة التيمة، والتي يمكن أن نستخلص فكرة أساسية عنها، من عنوان الرواية: غراميات مرحة (يجعل كونديرا من عنوان كل رواية، دالا واضحا، على التيمات المبحوثة فيها: الخلود، الهوية، البطء، الجهل، الخفة، الضحك والنسيان). إن التيمة الأساسية التي تجمع هذه القصص، هي: الجنس بين الشباب والشيوخ (وإن كانت هذه التيمة أقل بروزا في القصة الأولى: لا أحد سوف يضحك).

إدوارد والرب، تتعلق، إذن، كباقي الكتاب، بسؤال الجنس عند الشباب (إدوارد وأليس) وعند الشيوخ (المديرة سيشاكوفا). وتمتاز عنه، بحضور التدين، كأفق، يُطرح من خلاله هذا السؤال. ستحاول هذه المقالة، إذن، عرض، مختلف تأملات كونديرا الأنطولوجية، في هذه القصة.

أما الفرضية الأساس، التي سأجادل عنها، فهي: لا ينظر كونديرا إلى الدين كحاجة جذرية أو قبلية، وإنما يرده لحاجات إنسانية أخرى، حاجات أكثر سطحية، وأكثر تفاهة، ولكنها بحسبه أكثر التصاقا بالكينونة. وأن موقف كونديرا من الإله نابع من موقفه تجاه هذا العالم، بوصفه عالما لا جوهريا وتافها، بالضرورة.

في مديح البطء: نظرة على شقيق إدوارد

قبل أن ننخرط مع إدوارد، في مغامراته الجنسية والدينية، ربما كان علينا، أن نلقي نظرة، على شقيقه الأكبر، والذي يحضر كظل خافت، في القصة، ولا نعرف عنه إلا القليل، إلا أنه مع ذلك، يبدو مهما؛ بالطبع، لم نعرف اسم هذا الشقيق، فمعلوم أن كونديرا، لا يهتم كثيرا بأسماء شخوصه، على خلاف التقليد "البلزاكي"؛ الذي يصرف اهتمامًا مهولًا للتفاصيل، التي تضفي على الشخوص، أكبر قدر ممكن من الواقعية. إنه يتوجه رأسًا، لما هو جوهري: الأحوال الأنطولوجية للشخصية؛ فإذا كنا لم نعرف اسم هذا الشقيق، فإننا نعلم أنه شخص خمول. يعيش في الريف، ويكسب عيشه من الفلاحة؛ بعدما طُرد من الجامعة؛ لكونه داعب مقهقها زميلته في الجامعة (المديرة فيما بعد)، يوم وفاة ستالين، التي لم يكن على علم بها، فاعتبرت ضحكاته، في مثل هذا الظرف المفجع، خطيئة سياسية، تستحق العقاب. في فقرة واحدة قصيرة، يخبرنا كونديرا، ثلاث مرات، بأن شقيق إدوارد يجلس مضطجعا على أريكته؛ وهو يكلم أخيه. وفيما مضى، عندما قد قضى اليوم، الذي مات فيه ستالين، في حجرته متكاسلا وغافيا (كونديرا، 2012: 229).

شقيق إدوارد، فلاح خامل، إذن، فما هي قيمة ذلك؟ في روايته البطء، يتحسر كونديرا، على ضياع البطء، كنمط حياة. يرى أنه من ويلات الزمن الحديث، كونه قد توقف عن تقدير الخمول، بل و يا للخسارة، صار ينظر إليه، كشيء معيبا؛ لقد تمت التسوية بينه وبين البطالة والعطالة، بينما هما شيئان مختلفان تماما. وبالطبع، يعزو كونديرا، هذا التحول، في المقام الأول، إلى التقنية المتوحشة، التي التهمت الطبيعة، وهي في طريقها للسيطرة على الكوكب. ومن هنا الربط بين الخمول والفلاحة؛ الفلاح يعيش بجوار الطبيعة (بجوار الكينونة حتى نتكلم في لغة هايدجر)، في منأى عن المدينة، التي تسحق أهلها، بسرعتها التي لا ترحم، وبالتالي، تتاح له الفرصة، للتسكع والتنزه، للخمول، للبطء:

"لم اختفت لذة البطء؟ آه، أين هم متسكعو الزمن الغابر؟ أين أبطال الأغاني الشعبية الكسالى، أولئك المتسكعون الذين يجرون أقدامهم بتثاقل من طاحونة إلى أخرى، وينامون في العراء؟ هل اختفوا باختفاء الدروب الريفية، والواحات، وفجاج الغابات، وباختفاء الطبيعة؟ ثمة مثل تشيكي يُحدد خمولهم الوديع، بالاستعارة الآتية: إنهم يتأملون نوافذ الإله. ومن يتأمل نوافذ الإله لا يسأم، بل يكون دوما سعيدا. لقد تحول الخمول في عالمنا، إلى البطالة، التي هي شيء آخر تماما؛ العاطل، خلافا للخامل، محروم ومستاء، هو في بحث دائم عن الحركة التي يفتقدها" (كونديرا، 2013، 6-7).

من هنا، نفهم، العداوة التي كان يكنها البروفيسور أفيناريوس، في رواية الخلود، للسيارات؛ لقد كان أستاذ الرياضيات المبجل، يتأبط سكينا، كل ليلة، ويخرج لتمزيق إطارات السيارات، معرضا نفسه للسجن (كونديرا، 2014أ: 287، 304-307)؛ فهو مفزوع من كون البشر، قد تصالحوا ببساطة، مع كل هذه السيارات، التي تملأ شوارع المدينة بالصخب، بينما هو يرى فيها مشكلة خطيرة، يلزم التعامل معها بكل صرامة. ولكن البشر قد توقفوا للأسف عن الانشغال بمثل هذه القضايا، التي قد تبدو عادية ومبتذلة، ولكنها، في واقع الأمر، بالغة التأثير على نمط جودهم في هذا العالم.

ومن هنا، أيضا، نفهم، لماذا سامح الشقيق، الرفيقة المديرة، التي تسببت في طرده من الجامعة، يوم وفاة ستالين، بل إنه أكثر من ذلك، ممتن لها:

"سامحتها لأنها لم تكن تعي ما تفعل؛ كانت تريد الإساءة إلي، لكن بفضلها، أنعم اليوم، بكل هذه السعاة؛ فأنا أكسب حياتي بشكل أفضل كفلاح، ثم إن الصلة بالطبيعة، تنقذني من القلق الذي يسحق سكان المدن" (كونديرا، 2012: 266).

الرمز الأنطولوجي الأساسي لشقيق إدوارد، هو، إذن: الخمول؛ ليس بوصفه كسلا، وبطالة، وفراغا ملقى على المرء، يحتمله بضجر، ويرغب في الخلاص منه، وإنما بوصفه نمطا للعيش؛ العيش بلا عجل، بطء اختياري، التفات للطبيعة، تسكع مرح، تنزه في الدروب (تأمل في نوافذ الإله)، وفرار من عبودية الوظيفة، ولهاث المدينة الذي لا يرحم (لا ننسى أن توماس وتريزا، في خفة الكينونة التي لا تُحتمل، قد عاشا أجمل أيام الحياة، في الريف، مع الأبقار وكلبتهم كارينينا).

ليست هذه دعوة لترك الوظائف، والنزوح الجماعي للريف، في ضرب من معاكسة التاريخ؛ فبغض النظر عن كون ذلك لم يعد للأسف في مستطاع البشر، إلا أن فكرة كونديرا، هي: إذا كانت وظيفة المرء ليست من اختياره، ووحده كسب القوت ما يجعله يستمسك بها، ينبغي ألا يعتبرها شيئا جوهريا في شخصيته، ينبغي

ألا يحملها على محمل الجد. ففي مقابل هذا الشقيق السعيد، كان إدوارد موظفا، لقد نجح (بفضل توصية المديرة)، في أن يعمل مدرسا بإحدى المدن الصغيرة ببوهيميا، ولكن هذا لم يشعره بالسعادة ولا بالشقاء:

"فقد كان يجهد نفسه دائما لكي يميز بين الجدية واللاجدية، وكان يضع مهنته كمعلم في خانة اللاجدية؛ ليس لأن مهنة التعليم تعدم الجدية في حد ذاتها، بل كان يعتبرها غير جدية بالنظر إلى جوهر ذاته؛ فهو لم يخترها، بل فرضها عليه الطلب الاجتماعي" (كونديرا، 2012: 230-231).

إدوارد لا يرى في وظيفته، التي لا غنى له عنها، إذن، شيئا جديا، وجوهريًا، فما الذي يراه جوهريا في حياته؟ إنها أليس؛ فتاة التقى بها في مدينته الجديدة، بدت له جميلة، وشرع يتفرغ لها (على عكس الوظيفة)، بجدية، تكاد تكون صادقة.

الطريق إلى أليس: إدوارد يصير متدينا

تدور أحداث هذه القصة، في ظل نظام شيوعي، حيث لم يكن التدين، أمرًا مرحبا به، ولكن ذلك لم يكن ليمنع وجود متدينين وكنائس. لماذا كان الشيوعيون يحاربون المؤمنين؟ ولماذا كان المؤمنون يتمسكون بدينهم؟ لن تجيب الرواية، عن هذا السؤال، إلا من المنحى الأنطولوجي: إن كونديرا يرد التدين ومحاربته في ذلك الزمن، كلاهما لجزء ما من كينونة البشر: الحاجة إلى العدو؛ لقد ناضل الشيوعيون، تحت لافته الثورة، حتى وصلوا للسلطة، وطوال فترة النضال، كانوا يشعرون بالفخر؛ لكونهم في الجانب الجيد من خط الجبهة: جانب الثورة. ولكن بعدما انتهى النضال، وانمحى خط الجبهة، الذي كان يفصل بين الأخيار والأشرار، شعروا بالإحباط، وراحوا يبحثون بنفاد صبر، عن جبهة بديلة؛ تعيد لهم هذا الشعور بالفخر، وبالفعل، وجدوا في الدين، هذه الجبهة التعويضية؛ فمن خلال دورهم كملاحدة يحاربون المؤمنين، شعروا مرة أخرى بأنهم في الجانب الجيد من الخط.

هذا فيما يخص الملاحدة، أما المؤمنون، ولنأخذ أليس كمثال، فقد كان إيمانها ينطلق، أيضا، من نفس منطق المعادة هذا؛ فالشيوعيون قد أمموا متجر أبيها، وهي من ثمة ناقمة عليهم، ولما كان أولئك الناس يكرهون الدين، وجدت أن أفضل طريقة لمعارضتهم، والانتقام منهم، هي: أن تؤمن بالرب (يذكرنا إيمان أليس بإيمان ابن توماس في خفة الكينونة، إذ كان ممتنًا لأسره كاثوليكية قامت برعايته، وكان ذهابه للكنيسة ضربا من ضروب معارضة النظام، أكثر منه محبة للرب).

وفق هذا المنطق، يكون كل فريق، إذن، قد وجد في الدين، عزاءً مناسبًا: "بهذه الكيفية هبّ الرب؛ هب لنجدة الفريقين معا" (كونديرا، 2012: 235).

إدوارد، بدوره، لم يكن شابا مشغولا بالدين، على أي نحو (لم يؤمم أحد متاجر أبيه)، وكان في نزهاته المسائية، مع أليس، يسعى بشكل تلقائي، لاحتضان كتفيها (ولمس نهدها)، ولكنها كانت تصده، دوما (لقد كانت عفيفة ومتحفظة تماما)، وفي إحدى المرات، أبعدت يده عنها، وفاجأته بالسؤال التالي: "هل تؤمن بالرب؟" كان السؤال مربكا (لدرجة أنسته النهد). إن إدوارد في مأزق الآن: لو أجاب بلا (وهي الحقيقة)، سيخسر الشخص الوحيد، الذي ملأ عليه غربته، في هذه المدينة. ولو قال لها نعم، أنا أؤمن بالرب، فيسكون ذلك كذبا محضا، وإدوارد لم يكن شخصا صفيقا. كيف يتصرف إذن؟ سيكذب ولكن كذبا قريبا من الحقيقة، قدر المستطاع: "أؤمن بالرب بطبيعة الحال، ولكن...تنتابني بعض الشكوك أحيانا"، لقد كذب إدوارد، لأنه:

"كان يدرك أن عليه ألا يبوح بالحقيقة، بل عليه خلافا لذلك، أن يغتنم الفرصة؛ فيجعل من إيمانه حصانا من خشب، يختبئ بداخله، تبعا للأسطورة القديمة (طروادة)، ليتمكن من التسلل خلسه إلى قلب الفتاة" (كونديرا، 2012: 232).

في يوم الأحد التالي، كان على إدوارد، أن يذهب مع أليس إلى الكنيسة، ويشارك في القداس، لأول مرة في حياته، ويركع مع النسوة العجائز، ويرسم شارة الصليب، بكل حماس. إن رغبة إدوارد في أليس، هي إذن التي أدخلته الكنيسة، هي التي جعلته يركع لله. ولكن ما هو الشعور، الذي خلفه ذلك في إدوارد؟ لقد:

"ساوره إحساس رائع، بأنه يفعل شيئًا، لم يسبق أن فعله في حياته قط. ولا يستطيع فعله في الصف، ولا في الشارع، ولا في أي مكان آخر. وشعر بنفسه حرًّا، على نحو عجيب" (كونديرا، 2012: 234).

لم تكن ممارسة إدوارد الطقوسية، إذن، جافة، بلا طعم أو شعور، بالرغم من كونها تفتقد بشكل جذري للإخلاص، لقد أكسبته التجربة الجديدة، شعورا بالحرية والمرح.

ذهاب إدوارد للكنيسة، وترتيله في القداس، وشربه من الماء المقدس، كل ذلك، لم يشفع له عند أليس؛ فلا تزال (رغم محاولاته المستميتة) تقاومه بكل صرامة، ما السبب إذن؟ عندما عرض إدوارد عليها السفر سويا، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، في شاليه أخيه في الريف (نظرا لأن الإمكانات الجنسية التي توفرها له الأزقة المظلمة ودار السينما، في هذه المدينة، كانت إمكانات بائسة بشكل محزن)، ورفضت أليس بكل فظاظة،

شعر إدوارد بأنه: "ليس أليس وحدها التي تصمد في وجهه، بل أيضا رب أليس، الحذر والمتيقظ على الدوام، شخصيا" (كونديرا، 2012: 237). إن السبب يكمن في تصور أليس عن الإله:

"لقد كان هذا الرب يستمد جوهره من فكرة واحدة (ليست له رغبات ولا آراء أخرى سواها): تحريم الممارسات الجنسية خارج الزواج،... فمن أصل عشر وصايا نقلها موسى للإنسانية، تسع منها لم تكن تعرض روحها لأي خطر،... ثمة وصية واحدة لم تكن تبدو لها بديهية، وتشكل من ثمة تحديا حقيقيا، إنها الوصية السابعة: لا تزن أبدا. لذلك كان عليها، لكي تظهر إيمانها وتؤكده، أن توجه كل عنايتها لهذه الوصية، ولها وحدها. وبهذا جعلت من رب مبهم، عمومي، ومجرد، إلها محددا ومعقولا وملموسا: رب مناوئ للزنا" (المرجع نفسه).

لقد اختزلت أليس ربها، في كونه رب يحرم الزنا، ومن ثم اختزلت تدينها في التقيد بهذا النهي، فكونها مؤمنة يعني ببساطة أنها لا تزني. ومن هنا كانت مقاومتها لإدوارد، فهي لا تتصور أن تبقى مؤمنة حال مارست معه الجنس.

والحال، أن ذلك ليس شأن أليس وحدها، بل إن الرب يتعرض في أغلب الأحيان، لهذا الاختزال، من قبل عامة المتدينين (أفراد أو جماعات)؛ يتم اختزال جوهر التدين، في تصور بعينه عن الرب، أو في تشريع ما من تشريعاته. وعوامل متنوعة (نفسية، اجتماعية، ثقافية، تاريخية)، تساهم في تحديد نوعية ودرجة هذا الاختزال.

بعدما فشل تصريح إدوارد بأنه مؤمن (وركوعه مع العجائز)، في تحريك قلب أليس (وجسدها) تجاهه، سينتقل إلى مستوى أعمق من الكفاح، لقد: "شرع إدوارد في قراءة الإنجيل، والكتب اللاهوتية، وقرر أن يتصدى لأليس بأسلحتها نفسها" (كونديرا، 2012: 238). لقد تحول إدوارد إلى لاهوتي صغير، يشرح لأليس الفروق الجذرية بين العهد القديم والعهد الجديد، موضحا أن رب النصارى، ليس مهتما بالوصايا، التي كان يهتم بها رب العهد القديم (لا تزن)، وإنما هو مهتم بشيء واحد فقط: الحب. ولكن مواعظ إدوارد هذه، لم تؤت ثمارها أيضا، لقد أخفقت هجمته اللاهوتية، ومني بالخسارة.

من الواضح، إذن، أنه كلما زاد عناد أليس، كلما تعمق إدوارد في ممارساته الدينية؛ فبعد فشل المحاولتين السابقتين، قرر أن يتصرف تصرفا متطرفا، يربك أليس، ويفقدها اتزانها القاسي هذا. ومن ثمة، فهو أمام اتجاهين لهذا التطرف: الأول؛ وهو الاتجاه المعاكس لأليس: أن يكفر بالرب صراحة أمامها، فيقذف ويجدف، دونما حياء (وهذا ما تميل إليه طبيعته)، ولكن السير في هذا الاتجاه، محفوف بمخاطر مؤكدة، فمن

الممكن أن يخسر أليس للأبد، ومن ثم اختار الاتجاه الثاني، أن يتطرف ولكن في نفس اتجاه أليس (وهذا منافي لطبيعته)، لقد: "أبدى إدوارد ورعا مغاليا؛ لم يعد يهدر أية فرصة تتاح له للذهاب إلى الكنيسة، وصار يتصرف فيها بخشوع غريب؛ لقد كان يركع لأوهى الذرائع" (كونديرا، 2012: 240). لقد غدا إدوارد إذن متدينا محترفا، حيث بدا تدين أليس بجواره، تدينا فاترا وهشا.

لقد وصل الحال بإدوارد، إلى أنه يرسم إشارة الصليب، بكل خشوع، على أعين الناس، في وسط الشارع. لقد أفرط في تدينه، بغية الفوز بأليس، ولكن ذلك، فيما يبدو، لم يكن كافيا بالنسبة إليها. ما الذي يمكن أن يفعله إدوارد، إذن، لتغير موقفها؟

الطريق إلى إدوارد: الملحدة إذ تصلي للرب

لم تكن ممارسات إدوارد الدينية (غير الناجعة)، لتخفى على رؤسائه الملحدين، لقد تشكلت لجنة من أربعة قضاة (من بينهم المديرة بالطبع)، لتأنيب إدوارد على إيمانه، وللتأكيد على أنهم لن يسمحوا قط لمتدين أن يربي الشبيبة. ماذا يمكننا أن نتوقع من إدوار أمام أولئك الملاحدة؟

السيناريو الأقرب، هو أن ينكر إدوارد ببساطة، أنه مؤمن، وأن ذهابه للكنيسة وتصليبه في الشارع، ما هي إلا حماقات ارتكبها من أجل فتاة ما؛ وذلك لأنه لا يكنّ في واقع الأمر إخلاصا كبيرا لربه، المكتشف حديثا، بينما تمثل هذه الوظيفة، مصدر رزقه الوحيد. هذا بالفعل السيناريو الأكثر بداهة بالنسبة إلينا (وبالنسبة إلى إدوارد نفسه)، ولكنه، وبالتحديد، الذي لم يحدث، لماذا؟

لأن هؤلاء الملاحدة لن يتقبلوا ببساطة هذا الإنكار؛ إنها الرغبة في تأثيم الآخر، والتحفز الضاري لمعاقبته، ما دمنا نملك عليه سبيلا، إنهم لن يسمعوا حكايته عن أليس، ثم يقهقهوا بمرح، ويصرفوه، متمنين له حظا أوفر مع تلك العنيدة، إن الأمر محسوم بالنسبة إليهم من قبل الاجتماع: إدوارد مؤمن، وعليه أن يعترف بهذه الفضيحة القروسطية. لقد فهم إدوارد ذلك، واعترف لهم بالفعل، ولكنه أيضا، كان حريصا ألا يكون كذبه كذبا محضا، أن يكون قريبا قدر المستطاع من الحقيقة، ومن ثم وافقهم بوضوح في كل أحكامهم القاسية على الدين: "الدين! اليوم، في هذا الزمن الذي نرسل فيه صواريخ إلى القمر"، "لم يبرهن أحد قط على وجود الرب"- "الإيمان بالرب يؤدي إلى الجبرية". "إنه من بقايا القرون الوسطى"... إلخ، بل راح يزايد عليهم أيضا قائلا: "الفرق بين تاريخ البشرية، وما قبل تاريخها؛ هو أن الإنسان تولى مسؤولية قدره، ولم يعد في حاجة للرب". ولكن مع كل هذه الإقرارات، أكد أنه لا يستطيع منع قلبه من أن يؤمن بأن الله موجود. لقد قرروا في

النهاية، أن يعيدوا تأهيل إدوارد مرة ثانية، وبادرت المديرة، وتكفلت بهذه المهمة (كونديرا، 2012: 243-245).

لنلقِ نظرة على هذه المديرة: كونديرا، في أغلب الأحيان، لا يهتم بالتفاصيل المادية للشخصيات (الطول، الحجم، المظهر، الملبس،...إلخ)، فقط هو يفعل ذلك، عندما يكون لهذه الصفات، أثرا جوهريا، على فهمنا لمواقف الشخصية وأحوالها الوجودية. وهذا هو الحال مع شخصية المديرة، إنها: "امرأة طويلة، بارزة العظام، بشعرها الأسود الكثيف، وعينيها السوداوين، وأنفها الذي كسا أسفله زغب أسود" (كونديرا، 2012: 230). إنها امرأة عجوزة نسبيا، ودميمة تماما (يكاد يكون لها شارب)، ملحدة، شيوعية، أنفقت عمرها في النضال، وحيدة، بلا زوج أو حتى خليل. تبدي كثيرا من التعاطف مع إدوارد بوصفه شابا، الشقيق (الفلاح الخمول) قد نبهنا على ذلك: "لقد كانت تبدي دائما ضعفا أمام الشباب" (المرجع نفسه). إن الحال الوجودي لشخصية المديرة يتمثل في كونها: سيدة بائسة، حرمت من وجود رجال في حياتها، لدمامتها في المقام الأول، وكتعويض عن هذا الحرمان، اعتنقت الشيوعية بإخلاص لا مثيل له، وانفقت عمرها في حضور اجتماعات الحزب الحزينة، وفي الكفاح ضد الدين:

"وأدرك كل البؤس، المخيم على حياتها، دفعة واحدة؛ رأى القسمات التي تشي بشبقية جامحة، ورأى في الآن ذاته الدمامة، التي تجعل إشباع ذلك الجموح مستحيلا. وتخيلها، وهي تتحول إلى تمثال حي للألم، يوم وفاة ستالين، ثم وهي تحضر بهمة آلاف الاجتماعات، وهي تناضل بشغف ضد المسيح المسكين. وأدرك أن كل هذا لم يكن غير قناة كئيبة، لتصريف شهوتها، التي لم تجد وسيلة لتصريفها كما تشتهي" (كونديرا،2012: 249).

يرد كونديرا، إذن، إيمان المديرة بماركس، وكفرها بالمسيح، لسبب قد يبدو مبتذلا بشكل رهيب، ولكنه في واقع الأمر يمس كينونتها بوضوح: حرمانها من الجنس. من هنا كانت تضعف أمام الشباب، أمام إدوارد، الذي دعته لبيتها وأظهرت له توددا كبيرا. إدوارد كشاب، اغتر بهذا التودد، وأصابه الزهو، وظن أن إعجاب المديرة به، سيحل الورطة التي علق فيها، بسبب ذهابه للكنيسة وتصليبه في الشوارع. ولكن ألم يكن بوسع إدوارد أن يستغل هذه الأجواء الحميمة، ويصارح المديرة، بأنه ليس مؤمنا؟ بالفعل قد فكر في فعل ذلك، ولكن مع أول إشارة منه بذلك، وجد الأمور تسوء؛ إذ إن رأسماله الوحيد في هذه الورطة، هو اقتناع المديرة، بأنه صادق، مخلص، عرض مستقبله للخطر، في سبيل الوفاء للفكرة التي يؤمن بها، حتى لو كانت هذه الفكرة هي الدين. إن إدوارد عاجز إذن عن التنكر لإيمانه، لقد التصق بها وقضي الأمر.

إدوارد في موقف صعب مرة أخرى؛ فعوضا عن أن تجعل المديرة، من مقابلتها مع إدوارد (التي اختارت أن تكون في بيتها)، فرصة لتقويمه، ورده عن ضلالاته القروسطية، كما هو مخطط لها، راحت تتحرش به! عجوز دميمة (بشارب)، لا تصلح لشيء، وليس بوسعها أن تثير شابا مثله، ولكنه لا يستطيع أن يصدها، وإلا ضاعت الوظيفة، ولذلك استعان ادوارد بالكحول، لكي يفعل ما سيفعله، بشكل لا وعي، إذ لا سبيل لإتمام هذا الأمر المثير للقرف، إلا بهذا الشكل. ولكن المديرة المحرومة، وتحت وطأة شبقها الجموح، قبّلت إدوارد بعنف، فقطعت لسان المسكين، فأيقظته من أثر الكحول، وضاع أي أمل في أن يُستثار، ما العمل إذن، وبمن سيلجأ لينقذه من هذه الورطة؟ علينا ألا نستغرب الجواب، إنه الرب مرة أخرى؛ سيقفز من بين يدي المديرة العارية، فزعا: "كلا، كلا، يا إلهي، كلا، هذه ستكون خطيئة" (كونديرا، 2012: 261)، ولكن المديرة، أصرت باستماتة، مؤكدة أنه ليس ثمة خطيئة هنا. ولكن إدوارد، والحال هذه، أمر المديرة أن تجثو على ركبتيها راكعة، وتضم يديها وتصلي، كيما يغفر لهما الرب جرمهما:

"وفعلا راحت المرأة الجاثية، الهزيلة، والعارية، تنشد: "أبانا الذي في السماء، ليكن اسمك مبجلا مقدسا، ليأت ملكوتك..". كانت، وهي تنشد كلمات الصلاة ترفع عينيها إليه، كما لو أنه هو الرب. وكان يراقبها باستمتاع مضاعف: كانت جاثية أمامه، هي المديرة، ومرؤوسها يذلها. كانت أمامه، هي الثورية، عارية، مهانة بالصلاة، كانت أمامه امرأة تصلي، مهانة بالعري" (كونديرا، 2012: 262).

قبل أن تنهي المديرة صلاتها بـ"آمين"، أنقذ الرب إدوارد، وعاودته الاستثارة، فخلع ثيابه على عجل، عند قولها (وللمفارقة): "ولا تعرضنا للغواية"، وضاجعها، منهيا واحدة من حصص إعادة تأهيله!

مشهد "كونديري" بامتياز؛ عبثي، مضحك، خفيف، وساخر بشكل لا يوصف؛ الملحدة إذ تصلي عارية، من أجل الجنس.

أليس: خيانة الرب من أجل الرب

تساءلنا آنفا: ما الذي يمكن أن يغير موقف أليس، بعدما فشلت كل محاولات إدوارد اللاهوتية؟ لقد تغير موقف أليس (صارت أقل احتشاما، ووافقت على السفر إلى شاليه الشقيق مع إدوارد)، مباشرة، عندما علمت أن إدوارد يتعرض لضغوط رهيبة في عمله، وأنه ثابت على دينه، لا يخشى فيه لومة لائم: "من أجلك سأفعل أي شيء"، هكذا قالت له بإخلاص. لقد تحول إدوارد ببساطة، في هذه البلدة الصغيرة، إلى بطل حقيقي، وصورة البطل هذه، هي تحديدا التي حررت أليس من حشمتها وتحفظها الصارم. والحال، أننا نعلم جميعا، أن إدوارد لم يثبت على دينه، محبة للرب، ولا إخلاصا له، ولكنه ببساطة، وجد في ذلك، السبيل الوحيد، للحفاظ على

الوظيفة، إنه لا يستحق هذه الصورة إذن، ولكن: "بما أن القدر يرفض منحه الهبات التي يستحقها (أليس)، فإن من حقه أن يقبل تلك التي لا يستحقها (صورة البطل)" (كونديرا، 2012: 255).

لم تستجيب أليس إذن لإدوارد، بسبب محاولاته المستميتة، التي نمت عن تعلق بها لا شك فيه، ولا بسبب اقتناعها بالحجج اللاهوتية، التي حفظها من أجلها، ولا بسبب ورعه المتطرف، وإنما بسبب سوء فهم؛ بسبب خبر كونه صمد ولم يتنكر لدينه، معرضا نفسه للخطر، وهو ما لا يمت للواقع بصلة. إنها لم تستجب لإدوارد إذن، وإنما استجابت لإدوارد أسطوري آخر، لم يوجد قط؛ إدوارد البطل، المستعد للتضحية بمستقبله من أجل الرب.

وهنا يتساءل كونديرا، بذكاء:

"لماذا تدفع استماتة إدوارد في التمسك بالإيمان إلى حد الاستشهاد، أليس إلى خرق القانون الإلهي؟ أكان عليها أن تخون ربها أمام إدوارد، لأنه رفض خيانة الرب، أمام لجنة التحقيق؟" (كونديرا، 2012: 263).

هل كان إخلاص إدوارد (المزعوم) للرب، مسوغا لخيانة أليس له؟ واقع الأمر، أن هذا السؤال-المفارقة، قد أفسد على إدوارد كل شيء؛ فبعد أن وهبته أليس نفسها بكل سخاء (في شاليه الشقيق)، لم يجد إدوارد في ذلك حدثا مهما، خاتمة تليق بكل العذابات التي تكبدها، في سبيل هذه اللحظة التي طال انتظارها. فالحال، أن إدوارد عوضا أن يمتن لأليس لكونها وهبته نفسها أخيرا، شعر نحوها بالضغينة! فلقد: "غاظه أن تخون بهذه السهولة ربها المعادي للزنا، وهي التي كانت فيما مضى تكن له تبجيلا متشددًا" (كونديرا، 2012: 264).

إن فكرة كونديرا هنا، هي أننا لسنا ذوات متماسكة بالقدر الذي قد نظنه؛ بالرغم من كون إدوارد، كان يحتال على أليس، ويلعن تعنتها، إلا أنه كان يراها ذات متماسكة؛ فجمالها الأولي، يتساوق مع إيمانها الأولي بالرب، يتساوق مع صدها له. ذات أليس عبارة إذن عن وحدة متناغمة من جسد وأفكار وأفعال. ولكن هذا التماسك انهار فجأة، عندما تخلت أليس عن عفتها ببساطة مذهلة، فقط بعد سماع خبر، لم تتأكد من صحته حتى، ولم تعد من ثمة أفعالها متساوقة مع أفكارها الدينية، وهنا بالتحديد لم يعد إدوارد يرى هذا التناغم الدال على الوحدة، وبدت له أليس من ثمة ذات متشظية.

الطريق إلى الرب: لا مكان للجدية في هذا العالم

ما هو الدرس الذي تعلمه إدوارد من أليس؟ عندما كان إدوارد عاجزًا عن أخذ وظيفته على محمل الجد، لأنه لم يخترها، ظن أنه سيجد الجدية مع أليس، لأنه قد اختارها بنفسه، على عكس حاله مع الوظيفة، ولذلك صرف لها انتباهه، وعرض نفسه للخطر، من أجلها. ولكنه عندما تدبر في الطريقة التي خانت بها ربها، انكشفت له فجأة لا جدية أليس، وتفاهة قصته معها، لقد:

"أدرك بأسى أن المغامرة التي عاشها لتوه مع أليس، كانت سخيفة؛ صنعتها مصادفات وأخطاء، وتخلو من الجدية والمعنى. كان ينصت لكلام أليس (في طريق العودة من شاليه الشقيق) ويرى إيماءاتها له، وقال لنفسه: إنها إشارات بلا معنى، شيكات مصرفية بلا رصيد، وأنه لا يمكن أن يعطيها من الأهمية، أكثر مما كان أن يوليه الرب لصلاة المديرة العارية" (كونديرا، 2012: 268).

إن وهب أليس نفسها لإدوارد، وسعادتها به، لا تساوي في نظر إدوارد، أكثر مما قد تساويه صلاة الملحدة العارية في نظر الرب؛ كلاهما بلا معنى.

والحال، أن هذه النظرة لم تتوقف عند أليس، وإنما امتدت لتشمل كل من هم في المدينة، ثم امتدت لتشمل العالم بأجمعه (وإدوارد نفسه بالتبع)، لا شيء حقيقي هنا: "كائنات ذات مواقف قابلة للتداول بينهم، مخلوقات من دون جوهر صلب" (المرجع نفسه)؛ فأليس المؤمنة، تخلت عن وصايا ربها ببساطة وزنت، تماما كما قد تفعل ملحدة ما. والمديرة الملحدة، تخلت عن كفاحها ضد المسيح في وهلة، وراحت تصلي راكعة وتنشد أبانا، تماما كما قد تفعل مؤمنة ما. وإدوارد نفسه استطاع أن يتدين ببساطة، كما استطاع ألا يكون متدينا قبل ذلك، وهو نفسه بعدما فعل كل ما فعل لينال أليس، أبغضها بعدما نالها، وتركها، ثم ندم بعدها، على كونه قد فرط فيها، ولكنه بعد فترة قصيرة لم يعد نادما، ونسيها وهو برفقة غيرها، ليس ثمة وحدة في المواقف ولا في الأفكار إذن، ليس ثمة جوهر، بل إن الشيء الجوهري الوحيد في الذات البشرية، تتمثل في غياب هذا الجوهر، في التحول والتغير باستمرار، إنها صيرورة ذات وليست ذاتا.

إن لا جوهرية هذا العالم، ولا جديته، هي تيمة تخترق مبدع كونديرا كله، في واقع الأمر، وهي التيمة الأساسية لروايته الأخيرة، حفلة التفاهة:

"التفاهة يا صديقي هي جوهر الوجود. إنها معنا على الدوام وفي كل مكان. إنها حاضرة حتى في المكان الذي لا يرغب أحد برؤيتها فيه: في الفظائع، في المعارك الدامية، وفي أسوأ المصائب. وهذا غالبا ما

يتطلب شجاعة للتعرف عليها في ظروف درامية للغاية ولتسميتها باسمها. لكن ليس المقصود التعرف عليها فقط، وإنما يجب أن نحبها، يجب أن نتعلم حب التفاهة" (كونديرا، 2014ب: 108).

ينظر كونديرا إلى العالم إذن، بوصفه شيئا لا جوهريا، تافها، وخاليا من الجدية والمعنى، فما الذي يترتب على ذلك أنطولوجيا؟ أولا؛ أنه علينا ألا نأخذ هذا العالم على محمل الجد:

"أدركنا منذ زمن طويل أنه لم يعد بالإمكان قلب هذا العالم، ولا تغييره إلى الأفضل، ولا إيقاف جريانه البائس إلى الأمام. لم يكن هناك سوى مقاومة وحيدة ممكنة: ألا نأخذه على محمل الجد" (كونديرا، 2014ب: 75).

والحال، أن هذا الموقف من العالم، ليس موقفا مجانيا، وإنما هو موقف محزن، ويدعو للأسف، في واقع الأمر، ولكنه، بالرغم من ذلك، الموقف الذي يحبذه كونديرا، كنمط للعيش في هذا العالم: "آه، أيها السادة والسيدات، كم هو حزين أن يعيش المرء، وهو غير قادر على أن يأخذ أي شيء أو أي شخص على محمل الجد" (كونديرا، 2012: 271).

أما الأمر الثاني، الذي يترتب على هذه النظرة للعالم، فيتمثل في الحاجة إلى الرب؛ فإذا كنا عاجزين عن رؤية أي شيء جوهري في هذا العالم، فإن ذلك لا يعني أننا يمكن أن نستغني عن الجوهري بكل بساطة، فإدوارد، الذي لم يجد في الوظيفة ولا في أليس ولا في المديرة، ولا في كل الفتيات اللواتي عرفهن بعد ذلك في حياته في هذه المدينة، أي شيء جوهري، كان في المقابل "يعشق النزهات الفردية التي كان يذهب فيها للكنيسة"، بالرغم من كونه لا يزال غير مؤمن (تماما كحال سابينا في خفة الكينونة التي لا تحتمل):

"لم يعثر إدوارد قط على شيء جوهري، لا في علاقاته الغرامية، ولا في مهنته، ولا في أفكاره. إن إدوارد أشرف من أن يقبل بوجود الجوهري في اللاجوهري، لكنه أضعف من ألا يتوق سرا إلى الجوهري" (كونديرا، 2012: 270).

طالما لا نجد ما هو جوهري في هذا العالم، فعلينا أن نبحث عنه خارج هذا العالم، ووحده الرب من يمكن اعتباره خارج هذا العالم، إنه هو الجوهري في مقابل هذا العالم اللاجوهري:

"يتوق إدوارد إلى الرب؛ لأن الرب وحده المعفي من فريضة الظهور، والذي يمكن أن يكتفي بالوجود فقط، فوحده فقط يمثل النقيض الأنطولوجي لهذا العالم، الذي هو غير جوهري بمقدار ما هو ظاهر وموجود" (كونديرا، 2012: 271).

إن نظرة كونديرا للرب إذن، مرتبطة بطبيعة نظرته لهذا العالم؛ فالعالم لا جوهري وتافه بالضرورة، والرب لا ينتمي إلى هذا العالم، ومن ثمة وحده هو الجوهري.

خاتمة

هذه قصة عن إدوارد وأليس والمديرة، أكثر منها قصة عن الإله؛ لم يكن المقصود منها المحاججة عن وجود الرب من عدمه، فهذا من شأن كتب اللاهوت، لا من شأن الرواية؛ فمهمة الرواية الحصرية، هي التأمل في كينونة الإنسان في العالم. كل ما في الأمر، أن كونديرا في هذه القصة، قد اتخذ من الدين أفقا للتأمل في هذه الكينونة، عبر النظر في كل الإمكانات الوجودية للتدين، المتحقق منها في الواقع بالفعل، أو الخيالية الذي يمكن لها أن تتحقق. فالمهم ليس تحقق هذه الإمكانات، وإنما المهم أنها إمكانات وجودية للذات البشرية.

ليس من هم الرواية، بما هي كذلك، أن تقدم أية أحكام قيمية أو دينية، ومن ثمة علينا ألا ننتظر من كونديرا هنا، أية أحكام يمكن أن تتعلق بالمؤمنين أو بالملحدين. إن الشيء اليقيني الوحيد في الرواية، بحسب كونديرا هو: اللايقين، النسبية المطلقة، التي يقتضيها الطابع الساخر (الضروري) للرواية، التعليق الأبدي للأحكام القيمية والمطلقة:

"السخرية هي البرق الإلهي الذي يكشف عن الغموض الأخلاقي لهذا العالم، وعن عدم اختصاص الإنسان العميق في الحكم على الآخرين. إنها ثَمل نسبية الأشياء الإنسانية، السعادة الغريبة الناتجة عن اليقين بعدم وجود اليقين" (كونديرا، 2007: 195).

ليس من اللائق إذن، أن ننشغل بإطلاق أحكام معينة، على تصرفات إدوارد أو أليس أو المديرة، إذ إن الهدف من القصة، هو المساهمة في إنارة جزء من كينونة الإنسان، وهو الجزء المتعلق بالتدين، الهدف هو أن نفهم الذات البشرية مزيدا، بوصفها كائنا موجودا في العالم (دازاين بلغة هايدجر). اختار كونديرا تيمات الجنس والشباب والشيخوخة، ليفحص من خلالهم أنطولوجيا التدين. وبالطبع، عبر لغة فكاهية ساخرة بصورة لا نهائية، كما يقتضي المنطق "الكونديري" للرواية.

الفرضية الأساسية، التي يمكن أن ننطلق منها لفهم عمل كونديرا هذا، هي: كونديرا لا يرى أنه ثمة ما هو جوهري في الذات البشرية، والتدين لا يشذ عن ذلك، هو أيضا (كما جميع الأفكار) لا جوهري، تماما كما هو الإنسان، وكما هو العالم. ومن ثمة، فإن كونديرا يرد التدين لما قد يبدو سطحيا في الإنسان (إذا جاز لنا أن نستخدم وصفا سطحيا، فهي كلمة لا تستمد معناها إلا في وجود نقيضها، أي الجوهري، وليس ثمة جوهري

هنا، وبالتالي ليس ثمة سطحي)؛ إن الناس قد يؤمنون أو يلحدون لأتفه الأسباب: لماذا حارب ثوار براغ المسيح المسكين؟ لأنهم وجدوا فيه عدوا يجعل منهم مناضلين مرة ثانية. لماذا آمنت أليس؟ انتقاما من الشيوعيين الملحدين الذين أمموا متجر أبيها. لماذا تدين إدوارد، وراح يصلّب في الشوارع، ويحفظ أقوال القديس أوغسطين عن الحب المسيحي؟ رغبة في أليس. لماذا عاشت المديرة تكافح ضد المؤمنين؟ كتعويض عن حرمانها الناتج عن دمامتها، ولماذا صلت ورتلت "أبانا"؟ من أجل نوال إدوارد.

لما كان التدين أمرا غير جوهري، كان عرضة للتغير ببساطة؛ إدوارد الذي لم ينشغل أبدا بالرب، استطاع فجأة أن يحافظ على الذهاب إلى الكنيسة (والركوع بورع مع العجائز)، طمعا في الوصول إلى أليس. تلك التي أبدت في البداية، احتشاما صارما وخشية من الرب، وصمدت أمام كل محاولات إدوارد الإيروتيكية (واللاهوتية)، والتي تخلت بكل حماس عن تدينها، عندما سمعت عن صمود إدوارد أمام لجنة التحقيق. والمديرة التي أنفقت عمرها في الكفاح ضد المسيح، ركعت بكل بساطة، وأنشدت أبانا (عارية) من أجل إدوارد.

التدين ليس جوهريا، لأن الإنسان ليس جوهريا، ولأن العالم كله ليس جوهريا، إنه مليء باللامعنى وتتلاعب به الصدف، ولذا من العبث أن نأخذه على محمل الجد. وهذا بالتحديد ما يجعل للإله قدرا رفيعا؛ إنه الوحيد الذي لا ينتمي بأية حال لهذا العالم، ومن ثمة وحده الجوهري، الذي لا نملك إلا أن نحن إليه، حتى من لم يجد ما يكفيه من الأدلة ليؤمن به، لا يستطيع أن يمنع نفسه من هذا الحنين إليه.

المراجع

1- إلياد، ميرتشيا، 1994، الحنين إلى الأصول: في منهجية الأديان وتاريخها، ت: حسن قبيسي، بيروت: دار قابس.

2- إلياد، ميرتشيا، 2007، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ت: سعود المولى، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

3- كونديرا، ميلان، 2007، ثلاثية حول الرواية: فن الرواية، الوصايا المغدورة، والستار، ت: بدر الدين عرودكي، القاهرة: المركز القومي للترجمة.

4- كونديرا، ميلان، 2012، غراميات مرحة، ت: محمد التهامي العماري، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

5- كونديرا، ميلان، 2013، البطء، ت: خالد بالقاسم، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

6- كونديرا، ميلان، 2014أ، الخلود، ت: محمد التهامي العماري، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

7- كونديرا، ميلان، 2014ب، حفلة التفاهة، ت: معن عاقل، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

8- نيتشه، فريدريتش، 2003، هذا هو الإنسان، ت: على مصباح، بيروت: منشورات الجمل.

9- هايدجر، مارتن، 2012، الكينونة والزمان، ت: فتحي المسكيني، مر: إسماعيل المصدق، بيروت: دار الكتاب الجديد.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنــون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com مؤسسة دراسات وأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2015

جميع الحقوق محفوظة © 2015